

باي تونس وحاضرتة

صحت منذ نحو ستين في بلاد الجزائر وتونس مبتدئاً من وهران ومنها توجهت الى تلسان بالقرب من حدود مراكش فعاصمة الجزائر فبلاد بلیدا فقسطنطينة فعنابة اربون كما يسميها الفرنسيون ثم تركت الجزائر وذهبت الى عاصمة تونس حيث تشرفت بمقابلة سمو محمد الهادي باي صاحب المملكة التونسية الذي جلس الآن على عرش البيت العلوي الحسيني وكان حينئذ ولي العهد وهو الباي الثالث عشر من سلالة حسين بك علي تركي مؤسس البيت الحسيني فاني حينما بلغت تونس ذهبت لمقابلة سموه في قصره الذي بناه في درمش بضواحي تونس فقابلني مرحباً وكنت قد تشرفت بمقابلة سموه اول مرة في مدينة فيشي من اعمال فرنسا. وهو على جانب عظيم من الانس والذعة مع ذكاء عقل ونباهة قدر يدلان على انه اهل للقيام بالمهام العظيمة التي عهدت اليه خبير بالاحكام والشؤون المالية والفنون العسكرية اتم دروسه في احسن مدارس فرنسا ثم عاد الى وطنه يشارك المرحوم والده في ادارة مهام البلاد وهو الآن سهران على مصالح اتمه وتقدمها وينجاحها ويهتته تملأ العين مهابة فهو طويل القامة اسمر اللون ذو عينين سوداوين يراقتين يعاها حاجبان اسودان عريضان. ووجهته عريضة ويداها كبيرتان يمسك باحدهما سحجة اما لباسه فاللباس الافرنجي وعلى رأسه طربوش مغربي

وعاصمة تونس واقعة في طول ٨° شرقاً وعرض ٤٤° ٣٦' شمالاً فيهاؤها كهواك بيروت حارة في الصيف ولكنها جيداً وسكانها الوطنيون من المسلمين واليهود وغير الوطنيين من طوائف مختلفة. اما الوطنيون فالمسلمون منهم سيمون القا واليهود اربعون القا وغير الوطنيين احد عشر القا من الايطاليين وعشرة آلاف من الفرنسيين والجزائريين وتسعة آلاف من اهالي مالطة والجملة ١٤٠ القا وقد كثر الايطاليون فيها والمالطية لقربها من بلادها.

والى شرق تونس وشمالها بحيرة طولها ستة اميال وعرضها ثمانية اميال ومساحتها ١٨٠٠٠ كيلومتر ومتوسط سمقها متران وكانت ارضها يابسة تزرع تغلب البحر عليها فصارت بحيرة وكانت البواخر تفرغ شحنها في صنادل تير فيها الى الجرك على ما في ذلك من النفقة والمتسقة فتألفت شركة حفرت ترعة في البحيرة طولها تسعة كيلومترات تخفر البواخر فيها وترسو في ميناء أنشئ لهذه الغاية وتفرغ شحنها في الجرك مباشرة

وكان منظر المدينة قبلاً كمنظر مدينة مصر قبل انشاء اجزاء الازبكية والتوفيقية والاسماعيلية فاصبحت اليوم من المدن الجميلة بشوارعها ومنتزهاتها وكان امام بابها اراضي سحجة

فدمت وخططت فيها الشوارع وهي الآن حي الافرنج وأطلق علي شوارعها اسماء الممالك الاوربية
كشارع روسيا وشارع النمسا وشارع اسبانيا ويقال للشارع فنجح وتنجح في وسط هذا الحي شارع
يتدئ من باب المدينة وينتهي الي البحر طوله ٥٠٠٠ متر وعرضه ٦٠ متراً وغرست على جانبيه
الاشجار واقمت الفنادق والمخازن الكبيرة والقهاوي فكانت شارع من شوارع مرسيليا . وللمدينة
باب كبير فاضل بينها وبين حي الافرنج ومنه دخلتها فوجدت شوارعها ضيقة الا انها
مبلطة بالحصى ونظيفة والدكاكين صغيرة لكنها مملوءة بالبضائع وتسمى الاسواق باسماء ما يباع
فيها . والسوق العمومية مبنية على شكل سوق استانبول وبالقرب منها جامع الزيتونة المشهور
بمدرسته وظللت سائراً الى ان وصلت الى القلعة ويقال للقلعة هناك قصبة وهي قديمة العهد بناها
الاسبان واحتملها الاثراك وغير الفرنسيون هيئتها القديمة وفيها حاميهم ولما فتحها الاسبانيون
سنة ١٥٣٥ وجدوا فيها عشرين الف اسير من اسرهم القرصان وهم الذين فتحوا بابها للاسبان
ولما كانت شوارع المدينة ضيقة لا يمكن سير المركبات فيها مدوا خط ترامواي خيل حول
المدينة يتدئ من الباب المذكور آنفاً ويسير الى جهة الجين حتى يصل الى امام القلعة ثم يتجه
شمالاً حتى يعود الى الباب . تستغرق هذه الدورة نصف ساعة يري الراكب فيها هيئة المدينة
وفي انشاء مرور الترامواي ينزل الركاب ويدخلونها منه

وتما يستحق الرؤية في تونس البارود او قصر البايات القديم الى جانبه قصور اخرى وتكنة
للجند والحكمة والسجن وحول الجميع سور كبير . وكان الباي ينتقل كل يوم من قصره الخاص الى
قصر المحكمة او الديوان فيعقد جلسة مع وزرائه ومستشاريه للنظر في ادارة امور البلاد . ولكن
بعد الحماية الفرنسية ترك علي باي هذا المكان وبنى له قصرأعلى شاطئ البحر . وقصر البارود
هذا لا شيء عليه من فخامة البناء ولكنه واسع جداً كثير الفسحات والدهاليز لما وصلت الى
بابه صعدت على درج من رخام على جانبيه ثمانية اسود من الرخام الابيض حتى انتهيت الى
فسحة مبلطة بالرخام الابيض حولها رواق قائم على اعمدة من رخام وعليه نقوش عربية لطيفة
وآيات قرآنية وتحت الرواق قاعات اشبه بقاعات سراي شبرا بمصر ثم دخلنا قاعة الاستقبال
وفيها يقابل الباي وفود المهثين في المواسم والاعياد وهي واسعة جداً وفي صدرها العرش وهو
مذهب وفي اعلاه شعار الحكومة التونسية . وجدان القاعة مزينة بصور الملوك وبيات تونس
بالتد الطبيعي وبين كل صورتين امرأة كبيرة . ومنها صورة محمد باي وحسين باي واحمد باي
وصادق باي وهو الذي وقع المعاهدة مع حكومة فرنسا سنة ١٨٨١ وصورة علي باي الذي توفي
حديثاً وصورة نابليون الثالث وامبراطور النمسا . ولكن اثن هذه الصور صورة الملك لويس فيليب

رسمت على قماش دو بلين وكانت تساوي نصف مليون فرنك حينما صنعت ولا يعمل الآن مثلها
ياقل من نصف هذه القيمة .

وتوجهنا من هناك لمشاهدة المكان الذي كانت زوجات محمد باي الاربع يقمن فيه وهو
كثير الزخرفة والنقوش فيه فسحة كبيرة مبلطة بالرخام الايض في كل زاوية منها غرفة للنامة
تشبه غرف المنازل الشهيرة في دمشق وبلها قاعة كبيرة لها قبة كقبة الجوامع تتألق من
داخلها لكثرة ما فيها من النقوش المذهبة . وهذه القاعة والغرف والنسحة جعلت الآن متحفا لما
وجد في تونس من العاديات والتماثيل القديمة وهي كثيرة وبينها تمثال اورفه من الصوان وهي واقفة
مكتوف بالقيتارة وامامها وحوش الارض كالاسد والنمر والذئب تسمع صوتها وعليها ملايح الطرب
وضواحي تونس كثيرة جميلة وقد تكفلت شركة ايطالية بمد سكة حديد بينها وبين
العاصمة يبلغ طولها ٢٠ كيلو مترا وبعد ان منت غار الفرنسيون فاشتروها منها بمبلغ كبير .
وهاك بيان هذه الضواحي

(حلق الواد) او غوليتا وهو اسم قرطنجي والفرنسيون يقولون لاغوليت . لما ركب قطار
سكة الحديد اليو كانت بحيرة تونس الى اليمين والى الشمال اراض منبسطة مزروعة قمحا وشعيرا
وزيتونا وكانت حلق الواد الميناء القديم لتونس ولكنها انحطت بعد فتح التربة في البحيرة . وعدد
سكانها الآن ٦٠٠٠ نفس

(خير الدين) نسبة الى خير الدين باشا الذي كان وزيراً لتونس وصدراً اعظم للدولة
العلية بنى له فيها قصراً على شاطئ البحر تحول الآن الى فندق وتياترو وحمامات بحرية يومه
خلق كثير للتنزه نهاراً وليلاً

(قرطاجنة) ذهبنا اليها ومعنا الدليل فشهدنا حدود عاصمة الفينيقيين من جهاتها الاربع
واراضها تزرع الآن قمحا وشعيراً بعد ان كانت من اكبر العواصم وامنها حتى كادت رومية
تعجز عنها وتقرجنا على الفورم والصحاريج الرومانية والمتحف الكبير الذي بناه الكرديتال لافيچري
الشهير وجمع فيه العاديات والآثار الفينيقية والقرطاجنية والرومانية واليونانية والاسبانية
والتركية والعربية وقسمه الى اقسام كثيرة ملاءها بالاسلحة والمصابيح والحلى الذهبية والفضية
والنحاسية والزجاجية والالآية الحديدية والنحاسية والفضارية وغير ذلك شي كثير

وبالقرب من هذا المتحف كنيسة عظيمة بناها الكرديتال المذكور سنة ١٨٤٢ في البقعة
التي توفي فيها الملك لويس التاسع الملقب بالقديس سنة ١٢٧٠ وكانت وفاته بالطاعون الذي
فشا في جنده وهو فاصد غزوة تونس . والكنيسة تتوق في الجمال والاتساع والزخرف كثنائس

مصر والاسكندرية مع انه لا يصلي فيها سوى الرهبان . وقد انفق على بنائها النفقات الطائلة وكتب على جدرانها اسماء المتبرعين بالمال الكثير من فرنسا . وبعد وفاة الكردينال دفن فيها ونصب له تمثال على قبره من الرخام الايض يمثله وهو ماسك يده كتاباً ومكتفي يحملي ظهره . وفي قرطاجنة ايضاً فندق صغير يحوي على نحو عشرين غرفة يقم فيه مندوبو الجمعيات العلمية والمؤرخون يتقبون ويبحثون ثم يعودون الى اوروبا لنشر نتيجة ابحاثهم واكتشافاتهم . ولكن لسوء الحظ لم يبق من آثار قرطاجنة شيء يذكر لان كنائس تونس وجوامعها وقصر احمد بك في قسنطينة وبعض كنائس مالطة وصقلية ورومية اجتمعت كلها على سلب الكثير مما وجد في انقاضها من اعمدة الرخام والمرمر والحجارة الزينة

(المرسى) . وهي مبنية على شاطئ البحر اشتهرت بقصر علي باي الذي توفي فيه منذ شهرين تقريباً . وهو متسع جداً وله باب كبير امامه ساحة يحظر فيها حرس الباي الخصوصي وعدد من نجومه جندي وفي المرسى الآن نحو خمسة آلاف من السكان (سيدي ابوسعيد) . مبنية على مرتفع يشرف على البحر وهو اؤها جيد جداً ومنظرها جميل وبوتها يضاء تحيط بها اشجار الزيتون

وعلى مسافة بعض كيلومترات من تونس شمالاً اراض منبسطة اتخذها الفرنسيون منزهاً عموميّاً وقرروا اتفاق عشرين مليون فرنك عليها وقد انفقوا نصف هذا المبلغ الى الآن زرتها في المركبة فحسبتي في منزته فرنسوي لما رأيت من حسن تخطيط الشوارع تحف بها الاشجار على جوانبها وفسيقيات الماء في وسطها وفيها مرتفعات تطل على مدينة تونس فتظهر منها كالحمامة البيضاء في الابكة الخضراء

(حمام ليف) . وهي مبنية على شاطئ البحر ويوصل اليها بسكة الحديد في نصف ساعة بين البحر والمزارع الفناء ورائها جبل ابو قرنين ارتفاعه ٦٤٠٠ متراً وله قتان شاهقان ومن ذلك سمى بابي قرنين . يتردد التونسيون والاجانب على هذه الفساحة خصوصاً في ايام الاحاد وهي تشبه سان ستفانو في رمل الاسكندرية وقد غرست الاشجار على طرفها . وفيها تياترو شاهدت فيه تمثيل جوق فرنسوي يمثل عادة ايام الصيف من كل سنة

واحسن الاشهر للسياحة في تونس شهر سبتمبر (ايلول) ويستطيع السائح ان يشاهد اهم مدن الجزائر وتونس وجبالها وادويتها وسائر ما يتعلق بها في اربعين يوماً

وقد افضت الكلام على تونس وضواحيها وسائر بلاد المغرب في الجزء الثاني من رحلتي وهو تحت الطبع